

الصيام وسيلة للحفاظ على الكليات الخمس

الدكتور عبد القادر بن عزوز
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر.

أمرنا بالحفاظ عليها ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ البقرة: ٢٣٨ والتي غالبا ما يتركها بعض أفراد المجتمع، فرمضان وسيلة لمراجعة الذات و التوبة إلى الله عز وجل وتغيير هذا الفعل السلبي والإقلاع عنه لما يوفره من أسباب التوبة للفرد والجماعة، ولما يفتحه من باب الأمل في تصحيح الأخطاء وتقويم السلوك، فلقد جاء في الحديث الشريف ما يفيد فتح باب الأمل والتوبة والمراجعة للذات من قوله ﷺ: "إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ، فَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلِسَتْ الشَّيَاطِينُ" (٢) ليرجع عما كان عليه من أعمال سلبية، واضعا نصب عينيه مجموع النصوص الشرعية التي تثمن هذا الفعل وتشجعه وتبين أنه قد حان

يعتبر الصيام مركزا ومحورا للعبادات الدينية في الإسلام، وإن كان الصيام الواجب قدره الشارع الحكيم شهرا في السنة، وأما التطوع فلا حد له باستثناء صيام الأيام التي يحرم فيها، وإن الناظر في مقاصده يجده مرتبطا ارتباطا وثيقا بباقي العبادات الشرعية التكلفية، وهذا ما سأتوقف عنده في هذا البحث .

1- الصيام وسيلة لحفظ كلية الدين:

يعتبر الصيام جزءا من كلية الدين، إذ هو عبادة من العبادات كالصلاة والحج، غير أنه وإن كان مستقلا بأحكام تشريعية خاصة به من حيث زمان وجوبه وأركانه وشروطه ومسقطاته... فإنه يحقق جملة من المصالح لباقي الكليات الخمس فالصلاة التي

درب نفسه على ترك الحلال تعبداً لله سبحانه وتعالى فهذا الأمر يساعده على ترك المحرمات و المنوعات الدينية أو الاجتماعية غير المخالفة لمقاصد الشرع يكون من باب أولى في رمضان وبعده لتحقيق معنى الاستخلاف وما ينتج عنه من تحضر وتمدن .

كما إن الصيام يعتبر فترة لتدريب المكلف على أعمال الحج، إذ الحاج مطالب بأن يتمتع عن بعض الأقوال والتصرفات واللذات المباحة ويتوجه لأعمال الحج ومناسكه، وهذا عملاً بقوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ البقرة: ١٩٧، وإن الحج وبحكم حدوثه زمناً بعد الصيام، فكأنما جعل فترة ليتدرب على الصبر على الأذى ليتقبل شدة الزحام، وما قد يتأذى به منه . كما يعودنا رمضان على الكلمة الطيبة وإن بالرد بالفعل السلبي لمخاصمة أو تحرشات الآخرين عملاً بقوله -عليه الصلاة والسلام-: " الصَّيَامُ جُنَّةٌ ، فَلَا يَرَفَثُ ، وَلَا يَجْهَلُ ، وَإِنْ أَمَرُ قَاتَلَهُ أَوْ

زمان الرجوع والإقبال على تصحيح سيرة الحياة كحديث "...وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكْفَرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنِبْتَ الْكِبَائِرُ" ^(٣) وخاصة إن وجد التائب من يأخذ بيده ليشبث على توبته ورجوعه إلى ربه ومن ثم مجتمعه ، مما يبعث فيه المحافظة على صلواته بما يوفره الجو العام الروحاني للمجتمع في هذا الشهر الكريم من اجتهاد في المحافظة عليها في أوقاتها ويفضلون تأديتها جماعة في المسجد، مما يسهل على الفرد بأن ينسجم مع مجموع أفراد الحي في الاستمرار فيها، وذلك بشرط أن يلقي هذا الإقبال تثمينا من الإمام والمجتمع ببيان فضل المشاركة في العبادات جماعة وآثارها الأخروية والدنيوية ومقاصدها ! لا أن يعاتبهم عن تخلفهم عن المساجد طوال العام وحضورهم فقط في هذا الشهر! فهذه طريقة سلبية لمعالجة هذه الظاهرة كما يعتبر هذا الشهر وسيلة لمراجعة الفرد والجماعة مدى التزامهم بالأوامر والنواهي، فالصائم مكلف بأن يجتنب الحلال في الزمن الذي حدده الشارع تدريباً لنفسه على الانقياد للنواهي، فإذا

إيجابية تجاه الطاعات وسلبية تجاه المعاصي، وإن ربيت على الرذائل أو الشرور كانت نفساً رذيلة أو شريرة.

فالصوم إذن، يربي الإنسان على تنمية روح المسؤولية بالحد من شهوة البطن والفرج وكذا بتهديب الجوارح من سمع وبصر ولسان⁽⁶⁾ ... لتعين الإنسان على استصحابها على مدار السنة فالمكان محرم النظر إليه في رمضان هو نفسه محرم في باقي أيام السنة.

كما يحقق الصيام قوة العزيمة بما يشترطه الفقهاء من تبيت النية ففي الأمر بها مقصدان مقصد تعبدي وهو تخصيص اليوم بالصيام على الهيئة المشروعة كما يحقق مصلحة أخرى وهي تعويد الإنسان على الثقة في قدراته على القيام بأعمال الترك أو الفعل على كل المستويات الشرعية والاجتماعية ...

وإن الناظر في زمن الشروع في شهر رمضان يجده غلقاً بحركة القمر الذي لا يستقر في زمن محدد؛ بل يأتي في

شأنه؛ فليقل: **إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ...**⁽⁴⁾ كما يحقق مصلحة الدعاء فمن تعود على كثرة الدعاء في هذا الشهر على والصبر عليه ساعده في المحافظة عليه في غيره عموماً وفي أيام الحج خصوصاً فلقد جاء في سياق الكلام عن الصيام ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة: ١٨٦، وبالمقابل جاء في القرآن دعوة الحاج إلى الاهتمام بذكر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ البقرة: ٢٠٠.

2- الصيام وسيلة لحفظ كلية النفس:

جبلت النفس البشرية على أن تتفاعل مع الخير وتقبل عليه، كما تتفاعل مع الشر وتقبل عليه وهذا لمقتضى الحكمة الإلهية في الإنسان، ولتحقيق معنى الثواب والعقاب، قال تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد: ١٠، ومنه فإن ربيت على الخير كانت نفساً خيرة تقية⁽⁵⁾

من إخوانك الدين أوفي الإنسانية يعاني منه الأيام الكثيرة، وإن كنت تشعر بألم العطش في هذه الساعات، فغيرك من بني البشر قد تركوا أوطانهم وأموالهم لأجل شربة ماء.

كما يساهم الصيام في التقليل من الجرائم والجنح بما رسمه النبي الكريم ﷺ من رد الفعل السلبي بترك المخاصمة بقوله "إِنِّي صَائِمٌ ... " وتقدير الكلام هو أن يتلبس الصائم أو المكلف عموماً بهذه الصفة السلوكية في رمضان وغيره حتى نجنب الناس الوقوع في الجرائم، فرب كلمة في مشاجرة بين اثنين قد تؤدي إلى قتل أحدهما الآخر؟

كما أن من جملة المصالح التي يحققها صيام رمضان تدريب الإنسان على الحفاظ على نفسه وما تشريع الرخص بالإفطار للمسافر أو المريض أو العاجز أو الشيخ الفاني ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ البقرة: ١٨٤، وربط ذلك بتقدير الطبيب من جهة وبتقدير حد

فصول مختلفة في الشتاء والربيع والصيف والخريف، وإن هذا التعاقب في التكليف بالصيام في هذه الأزمنة المختلفة تدريب للنفس لتتأقلم مع الأوامر والنواهي على مدار الأيام ومختلف الأحوال، كما فيها أيضاً تقليل "الأنا" الذي يعتبر طغيانه سبب المهالك الدنيوية والدنيوية كما جاء في قوله تعالى ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف: ١٢ إذ طغيان "الأنا" على الإنسان يؤدي إلى الظلم وانتهاك الحرمات وأكل أموال الناس بالباطل... والصيام يضيق على النفس في هذه الأزمنة المختلفة بغلق أسباب شهواتها، إذ الشهوات منافذ للشيطان ينفذ منها إلى نفوسنا (٧) والصيام يدرّب النفس على مراقبة الله عز وجل في كل أحوالها وحالاتها ويعودها الصبر (٨) على الملدات لأنها مأمورة بترك الحلال فكيف بالحرام؟ ولقد سماه النبي الكريم "شَهْرُ الصَّبْرِ" (٩) وكان رمضان شهر المراجعات الفردية والاجتماعية، ويقول لنا بلسان المربي: فإن كنت تشعر بألم الجوع في ساعات معدودة؛ فإن البعض

الضرر من الشخص نفسه لتدريبه على أقصى حد للتحمل للجوع والعطش حتى يجعل ذلك مرجعا له في حياته اليومية في غير رمضان إنه وفي حال وصوله إلى درجة الاضطرار أن ينتقل إلى الأخذ بالرخص الشرعية حفاظا على نفسه واستمرارها في الحياة⁽¹⁰⁾.

3- الصيام وسيلة لحفظ كلية العقل:

يعتبر العقل أساس التكليف والتفكير ولقد عاتب القرآن الكريم من عطل من الناس عقوله ولم يستعملها فيما خلقت من أجله فوصفه بكونه أقل درجة من البهيمة ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلَا نَعْمٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩، والعقل يعتريه الجد والكسل وفق ما تدربه عليه وقد يكون ذلك بسبب إقبال المكلف على الشهوات ككثرة النوم أو الإسراف في الأكل مما يؤثر على تأدية وظيفته، وهي القراءة والتفكير والتدبر فيكون مخالفا لقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

العلق: ١، ولما جاء في سياق الحديث عن خصائص هذا الشهر من قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ البقرة: ١٨٥ وإن شهر رمضان يساعد الفرد على النظر والتأمل في حركة الكون إذ جاء الأمر بمراقبة هلاله في قوله تعالى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ البقرة: ١٨٥ فمدلول الآية تنشيط العقل وتدريبه ولا يحصل ذلك إلا بالعلم وبالحرص على ما فيه فائده، وذلك بتقليل شهوة البطن والفرج ومنع ما يشوش عليه كالنظرة المريية والمخدرات الحسية والمعنوية وما جاء في الآية من جواب عن سؤال العرب عن حركة الأهلة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ البقرة: ١٨٩ وسيلة من الشارع الحكيم للوصول بهم إلى التعرف إلى مقاصد حركتها من كونها علامات يستعان بها على معرفة الشهور والأزمنة وضبط الأوقات⁽¹¹⁾ على مستوى الفرد والجماعة، وما

4- الصيام وسيلة لحفظ كلية العرض أو النسل:

يعتبر الصيام وسيلة للحفاظ على كلية النسل أو العرض كيف لا؟ وقد جعل علاجاً لحالة الخوف من الفساد الأخلاقي الاجتماعي من انتشار شهوة الجنس في غير مواضعها وبغير أحكامها الشرعية ونظراً لأن الشاب أكثر الناس عرضة لهذا الأمر لقوة الشباب فيهم ولميولهم الفطرية الغريزية واكتمالها في هذا العمر الزمني جاء في الحديث النبوي مخاطباً لهم وتنبئها لهم على مسؤوليتهم ولخطورة انحرافهم على مستقبل الأمة، وخاصة عندما تفرغ طاقاتها في الممنوع وفيما لا طائلة منه للمجتمع فحثهم بقوله عليه السلام: "مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ؛ فَلْيَتَزَوَّجْ... وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؛ فَلْيُصُمْ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ" (13) وفي نفسه السياق جاء في السياق القرآني وهو بصدد الحديث عن بعض أحكام الصيام أن المعاشرة الحقيقية تكون وفق تحقق شرط الزوجية وتحقيق معنى الانسجام النفسي بين الزوجين، والتي عبر عنها باللباس لدلالة على

ربط بها من شعائر كالحج والزكاة والصيام، وكأن الآية جاءت لتحريك الانظار والعقول الانتباه إلى ما يدور فيما حولهم من ظواهر كونية، وأن ينظروا في مقاصد الصنعة فيها وأنها دلائل على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتدل على وحدانيته سبحانه كما تحقق معنى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ البقرة: ١٨٥، تسخير الكون للإنسان، وإن هذا الأمر لا يتحقق إلا بالعلم، لأن مراقبة الهلال من مجموع الأمة إن أمكن أو من خصوصها لا يحصل مع جهلهم بحركة القمر ولا يقبل إلا بتحقيق شهادة عدول منهم، وهذا أيضاً شرط يحتاج إلى معرفة شروط العدالة وضوابطها لتصديق الرؤية من عدمها (12).

كما إن في سن صلاة التراويح والاستماع إلى القرآن تدريب للمكلف على الصبر على القراءة أو السماع له من خلف الإمام أو المقرئ، مما يساعده على تهيينته نفسياً على الإقبال على العلم ومجالسة العلماء، وهذا من شأنه أن يجعله غير جاهل بأمور دينه ودينه على حد سواء.

الأمر بالصيام تقليل من متطلبات الجسم المادية من طعام وشراب وتعويده على القدر القليل منه، وبذلك تدريبه على معنى الادخار والإنفاق الإيجابي، كأن رمضان يأمرنا بأن نجري جردا سنويا لما نفقه خلال الأشهر المتبقية للنظر في الأمور المالية التالية:

هل أنفقنا هذا المال في مجالاته الطبيعية أم لا؟
 وهل حققنا الاعتدال في إنفاقه أم لا؟
 وما هي الأولويات الواجب مراعاتها في إنفاقه مستقبلا؟

وما الأمر بإخراج صدقة الفطر في نهاية صوم رمضان ببيان فضلها ووقت إخراجها ومقدارها وتحديد المستفيدين منها من أفراد المجتمع إلا وسيلة للدعوة إلى تنمية المال والاقتصاد في إنفاقه في وجوه المشروعة، إذ رتب الشارع تصحيح السلوكيات الخاطئة أو السلبية التي يكون قد ارتكبها هذا الصائم من أفراد المجتمع أو ذاك وربطها بركة الفطر بيانا لأهميتها وتثبيتا لمقاصدها الشرعية

التوافق شكلا ومضمونا فقال تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ البقرة: ١٨٧.

وكأنما منطوق الآية ينبه الإنسان أيضا بأن العفة وطلب الحلال لا يتنافى مع مقاصد الشرع وطلب الشهوة في الحلال وبالطرق المباحة شرعا وأن رمضان جاء ليهذب الشهوات والغرائز البشرية لا ليقضي عليها^(١٤).

٥- الصيام وسيلة لحفظ كلية المال:

يعتبر المال عصب الحياة الدينية والدينية ولقد ربطت الشريعة به جملة من التكاليف، فالزكاة مثلا لا حظ للأجر فيها لمن لم يمتلك حد الغنى، والحج على المستطيع الواحد للمال... وإن شهر رمضان يساعد الناس على الاقتصاد في معيشتهم^(١٥) ولقد جاء في الحديث "...وَالْاِقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ"^(١٦) إذ في

الوقوف عنده المكلف في تصرفاته وأقواله وتذكيرا له بالعهد الذي بينه وبين خالقه (19) ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ البقرة: ١٨٧ ولقد جاء في الحديث الشريف مكملا لهذا المقصد ومفصلا له: "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ؛ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ" (20).

وفي الأخير ومما ذكر فيعتبر الصيام وسيلة مكملة لباقي العبادات تحافظ على استمرارها وتأدية المكلف لها على الوجه الحسن والمطلوب شرعا.

كما جاء في الحديث: "زَكَاةُ الْفِطْرِ: طُهْرَةٌ لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَطَعْمَةٌ لِلْمَسَاكِينِ ..." (17).

كما جاء رمضان ليحتاط الناس في النظر في مصادر أموالهم والابتعاد عن المال الحرام ولقد جاء التنبيه على أكل المال الحرام والتعدي على مال الموصى له وحرك فيه روح المسؤولية ومستلزمات الأمانة (18) قبل الحديث عن فرضية الصيام كدلالة للاحتياط للمال العام والخاص بعدم التعدي بتحريف الوصية حفاظا على الحقوق في قوله تعالى ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسِرٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: ١٨٢، ثم نبه عليه من جديد في وسط آيات الصيام تثبيتا له في نفس المكلف الصائم حتى يستقر في نفسه ويطبقه في واقعه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٨٨. لتنتهي الآية برسم الخط الأحمر الذي يجب

الهوامش

- (1)- البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومن رأى كله واسعا.
- (2)- مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان...
- (3)- البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.
- (4)- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1984م: 1/154-158.
- (5)- إحياء علوم الدين، الغزالي، دار إحياء الكتب العربية، مصر: 1/235.
- (6)- إحياء علوم الدين: 1/231.
- (7)- المصدر نفسه: 1/231.
- (8)- النسائي، كتاب الصيام، ذكر اختلاف على أبي عثمان في حديث أبي هريرة ..
- (9)- تفسير التحرير والتنوير: 1/162-166.
- (10)- تفسير التحرير والتنوير: 1/193.
- (11)- إحياء علوم الدين: 1/233. وتفسير التحرير والتنوير: 1/166.
- (12)- النسائي، كتاب النكاح، باب الحث على النكاح.
- (13)- تفسير التحرير والتنوير: 1/180.
- (14)- إحياء علوم الدين: 1/236.
- (15)- الترمذي، كتب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في التأني والعجلة، وقال أبو عيسى: حديث حسن غريب.
- (16)- أبو داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر.
- (17)- تفسير التحرير والتنوير: 1/153-187.
- (18)- تفسير التحرير والتنوير: 1/186.
- (19)- البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.